

مقام العقل في تكوين التاريخ

خلاصة لمذاهب هيجل وكارليل ووليم جيمس ولستر وارد

هيجل : [الى تاركس] ان ما ابديته من الآراء قضية — يا سيدي . واذا اخذنا بكل ما ذكر من الآراء في هذا الحوار وجدناها تشتمل على كل النوازل المكوّنة للتاريخ الاّ عامل العقل الانساني . فيحمل ذلك السامعين على الظن ان العقل والشجاعة لا قيمة لها في العمران . واذا كانت الاحوال الجبرانية والالتولوجية والاقتصادية تؤثر في اعمال افراد ، والجماعات سواسية ، افليس ثمة فرق بين كون الفرد عبقرياً او احمق . او بين كون القوم اذكياء او باهلاء ؟

تاركس : الفكر يا سيدي اداة الرغبة . والرغبات في الجماعات والامم ، اقتصادية . وقد قال بسمارك ان النظام الادبي لا مقام له في معاملات الامم . والرجل العظيم ، كذلك اداة او بوق لحركات الجماهير وللقوى الخفية . فان لم يكن كذلك عدّ رجلاً شاذاً غير ذي شأن في توجيه عصره . فسرّ به مجاري التاريخ ولا تأبه له . ومقام الفكر في التاريخ كقمامه في عمل الفرد . وفي كتنا الحالمين لا يكون المحرك فكرياً بل رغبة خفية لا يلزم قط ان يشعر بها الفرد . ولا ريب في ان العلاقة بين ثقافة عصر من العصور وحالته الاقتصادية كالعلاقة بين الفكر والجسم . لان الثقافة ليس الاّ مظهراً من مظاهر الافعال المحركة والقوى الخفية

هيجل : بحيرني ان يتكلم الماني هذا الكلام . ويظهر لي ان المانيا قد فقدت روحها بعد ايام كانط ولستع وهردر وغوته وشلر وينوثن — وبعد ايامي انا — الحجيده . لقد فقدت المانيا روحها في الصناعة . واصبحت تنجب كباويين ومهندسين بدلاً من الفلاسفة ورجال الفن . وهكذا تراها تتسرّ كل مظاهر العالم بمصطلحات الآلة والبكانيكا . واني لا توق لسباع رأي غوته في نظرتك ، او رأي هردر الذي استفزنا في اواخر القرن الثامن عشر بكتايبه الموسوم « آراء في فلسفة تاريخ البشر » — هردر الذي كان ينظر الى التاريخ فيحسبه عمل تهذيب عام للجنس البشري

اناطول فرانس : ما رأيك في التاريخ يا استاذ ؟ فاني اذكر اني لما كنت طالباً كان

اسمك بلا جورٍ بلادنا، والحقيقة انه لم يكن يتنا من يستطيع ان بهم شيئاً مما ترمي اليه.
 فقد اتبع لنا الآن في هذه الحقول الابدية ان نجمع هيجل وان نقسمه
 هيجل : كان لا بد لي من التموض لكي لا يفهمي الجهال . اذ لم يكن من الهنات الهيئات
 ان أنهم جيلي انا نجد في الكون من آثار العقل قدر ما نضعه فيه منها . وان الاله ليس
 « السبب الأول » بقدر ما هو « السبب النهائي » . وكان لا بد لي من ان اتكلم بهذه اللهجة
 لشدة ما عانيتاه من ضغط على حرية التفكير

ثولير : لقد ادركت ما ترمي اليه . فالتفكير بعد موت فردريك الكبير اصح غير
 شرعي في ألمانيا

هيجل : والواقع ان فلسفتي هي غاية في البساطة وسهولة التأخذ . الله كلي مطلق . والكلي
 المطلق هو مجموع كل الاشياء في عموها وامتدادها . الله ذهن . والذهن هو ذلك الفسيفساج ، او
 ذلك البناء للنوايس الطبيعية ، الذي يخرج فيه الحياة والروح ونحوها . الله روح والروح
 هو الحياة . والتاريخ هو امتداد الروح . اي انه نمو الحياة . والحياة هي اولاً فورية لا
 تتغير بذاتها . وعمل التاريخ اما هو اتجاه الروح او الحياة الى التمور بذاتها او حررتها .
 والطرية سر الحياة . فالتاريخ نمو الحرية وغاية الفسوفى هو كمال الروح حرية وضوراً
 ثولير : هذه لغة ثورية يا سيد هيجل

هيجل : وهذا جلي ما اعيه . قانا ارى ان التاريخ ثلاثة ادوار . الاول هو الدور الشرقي
 وفيه فرد واحد حر . والثاني الدور اليوناني والروماني وفيه افراد قلائل احرار . والثالث
 هو الدور الحديث وفيه نشر الروح بحريتها ، فننظم الدولة ونجعل الجميع احراراً

كارليل : هل تأذنون لشيخ ان يتكلم — انكم ما زلتم مفسدين البعري كمال في
 التاريخ . فلا تارانا بسدكل تأتقكم اترب الى الحقيقة من ذي قبل . فالتاريخ الدائم ، في عرفاني ، هو
 ما اعمه الانسان في هذا العالم ، وهو في حقيقة ، تاريخ اعظم الرجال . فكان هؤلاء الاطام
 قادة الناس ومبدعي الجمهور وشعلة الحضارة . بل كانوا خالقوه في كل ما يفعل وما يمتلك .
 فكل ما في هذا العالم اما هي نتيجة . خارجية ، وتحقيق عملي وتجميع لانفكار عظام
 الرجال المرسلين الى هذا العالم . فروح التاريخ العالمي بأجمعه ، هو روح هؤلاء الرجال . فاذا
 امكنا ان نفهم فيها صحيحاً صلنا على لغة الى صميم اتاريخ ولبابه

وليم جيمس : سمعاً سمعاً هذه حكمة نادرة الوجود

كارليل : لقد حان الوقت لادراك مصدر الآراء التي تهز العالم

هيفل : صبراً يا سادتي قتالاً راء التي نذكرها هي ما ادعوه «روح العصر» (زيتجست) فشمور كل زمن، وتفكيره هو روح ذلك الزمن. وكل ما في التاريخ هو نتيجة ذلك. وقد بانني ان المر «لمرخت» اتحل ذلك ولكنه يخفي اتحاله ببارة جديدة هي «التفسيه الاجتماعية». وان يكون لعظماء الرجال اثر ما في التاريخ الا اذا كانوا ادوات عديدة الشمور «روح العصر» هذا. فاذا ظهر رجل ممتاز ولم يكن موافقاً لروح العصر ذهب وجوده سدى كأنه لم يكن. فقد لا يكون المبقرى الذي منجده الذرية اعظم من انداده وأسلافه لانهم هم ايضاً وضعوا حجارة في البناء، ولكنه ممتاز بأنه واضع الحجر الاخير نيم به المقدم. وقراد من هذا التيل لا يدركون الفكرة العامة التي يملونها. لكنهم يدركون بصيرتهم مطالب العصر، فيملنون ما حان اعلانه ويملنون على تحقيقه. فليس العظماء بخالفين، انما هم نوابل تساعد في ولادة ما هو كان في رحم الزمان

كادليل : لا اعرف شيئاً عن قوايلك يا هر هيفل. لكنني اعلم انه لولا «كرمول» لكان التاريخ غير ما هو. ولولا «فردريك» لتحولت مجاري السران. ولولا «نابليون» لما اغتفر البشر لفرنا ثورتها. فعدم الايمان بالاظام كفران نيتشه : (كأنه يخاطب نفسه) : ان عيادة الابطال هي اثر من عبادة الآلهة. ومع ذلك فقد لسي الناس عادة الاجلال. ماتت الآلهة والانظار منجبة الى السورمان فويلر : هل جن الرجل؟ (سي نيتشه)

اناطول : انه ملهم يا سيد

وليم جيمس : اما انا فاعنى عناية خاصة بأثر اعظم الرجال في التاريخ. فاهي الاسباب التي تثير الجمهور جيلاً جديلاً؟ ما جعل انكفرا في عصر الملكة حنة غيرها في عهد الملكة اليباب؟ يقول ماركس ان لا علاقة للتير بالاشخاص، وان التيرت مجردة من سيطرة الافراد اما انا فلا اؤمن بذلك، وارى ان التير مرتبط بتأثير الافراد المتجمع — تأثير زعامتهم وقدوتهم وحزمهم. لا يا مستر ماركس ليس للسجوع اثر كبير في التاريخ. انا الجماهير تقضي آثار الاظام. فقد حول «بسمارك» انايا الفلسفية في جيل واحد الى امبراطورية حرية وتسلم «نابليون» زمام فرنا وقد اضكها التعب والمثل، فاستواها بعقريته وبث فيها روحه ورغبة في طلاب المجد. وكاد روزفلت بمحقق الشيء نفسه في اميركا. فاني اسلم مع «امرسن» : بقوله «انه يقبل قول «شو» الصيني حيث يقول ان الحكيم مهذب الاحيان. فاذا سمع احدٌ با داب «لو» صار البليد ذكياً والتذبذب حازماً : واني لوانق ان صديقي المسيو «نارد» يوافقني في ذلك. فان نظرتي الى التاريخ تظل مشوهة، اذا لم اخف اليها مذهبه في «التقليد»

تارد : أصبت في أبي أو أفقتك ، ففي العالم رجال كبار ، ورجال صغار . وكبار الرجال هم الذين يحددون الانقلابات فإذا سلنا بنقل الأحوال الجغرافية والانتولوجية والاقتصادية بقي لدينا أنه لا مندوحة عن فرد — أو أفراد — يتقدم للزمامة في كل حادثة وفي كل مجيد . ولا حظ في هذه الزمامة للرجل الصغير ، لأنه حيوان . والارجح أنه لا يعلم بأن ثمة حاجة إلى شيء . سوى تلبية التقاليد الثابتة . تكتفي بالعتاد والألوف . أما العظيم فيشعر بالحاجة الملحة ، ويفكر ، فإذا كل شيء قد تغير . وقد يفشل ، على أنه إذا فاز تبعه بضعة رجال من الدرجة الوسطى . فإذا فاز هؤلاء تبعهم موجة من التقليدين كطوفان طليخ . فقد قلده تاجر ياباني أساليب الغرب وآراءه ، وقد هذا عشرة آخرون من قومه ، والآب يتبع أسلوبه مائة ألف ، وبذلك تغيرت اليابان على بكرة أبيها . فبحرئ التقليد هو بوجه عام التي ، الوحيد ذو الشأن في التاريخ . ووراء العوامل الاقتصادية والجغرافية فعل بيولوجي هو الانتخاب الطبيعي لتتبعات الموافقة . والبقر في الشعب كالبذرة المحتوية على صفة التحول القوي في النبات . وروح مصر هي المحيط الآذن بظهور هذا التحول ونجاحه . فالتاريخ حرب عوان بين الاعتدال والبقية

كارليل : شكر الله . فأنه علم أنك أحسنت القول

لست وارد : ولا بد من إضافة أمر آخر إلى ما ذكر ، وهو أن التاريخ إنما هو تاريخ الاختراعات . قوراء التغيرات الاقتصادية تغيرات ميكانيكية ، ووراء هذه تقدم العلم الطبيعي ، ووراءه تفكير العالم المتأخر . قد لا يكون عطاء الرجال أسباب الحوادث التي يمتاز بها التاريخ — كالحروب والانتخابات والمهاجرة الخ . ولكنهم ولا ريب أسباب الاختراعات والاكتشافات التي تميد بناء العالم ، وتغير كل جيل عن الجيل السابق له . فهو المعرفة هو جوهر التاريخ

بكل : مصيب . فتاريخ الأمة السياسي يفهم بتاريخ تقدمها العقلي

وارد : أردت أن تعرف يا سيو فولير ، أية خطوات تقدم العالم ، من المعجزة إلى التمدن . فالجواب بالاختراعات . أن الرجال المتبرين في أميركا ليسوا رؤساء الجمهورية ، ولا السياسيين ، بل هم المخترعون ، « كفلتن » و« هوتني » و« مورس » و« مكورمك » والآخرون « ريب » و« اديسن » . أن آثار هؤلاء الرجال نزل عصوراً طويلاً بعد أن نسي أسماء الرؤساء . فآلة البخارية هي التي كوَّنت القرن التاسع عشر ، والكهربائية والكيمياء والطائرات ستكون أفقرن العشرين

ماركس : أسلم أن وراء التغيرات الاقتصادية الاختراعات . ولكن التقدم الصناعي

بل والابحاث العلمية، متوقفة على الحاجات والمطالب الاقتصادية . فالحاجة الصناعية تفتح حيلة العالم اكثر من عشر جامعات . وكل اختراع هو خطوة اخيرة في سعي طويل الامد . وقد يرد احياناً بدفات لا يشر بها . ولكنه في النهاية متوقف على الحاجات الاقتصادية . اناطول : متوقف على حاجات حياتنا يا سيو ، والشؤون الاقتصادية جانب منها فقط . وتوقف بعض الاختراعات ، بل وكل التاريخ ، على حاجة الحب الذي ليس له اساس اقتصادي . والواقع انه متى لاس الحب الاقتصاد يبدأ في الذبول والموت . فلماذا ألّف الناس في الموسيقى بحسب نظرتك ؟

ماركس : الموسيقى نقاية كقطران النجم والصابون

يتشبه : الحياة بدون موسيقى خطأ

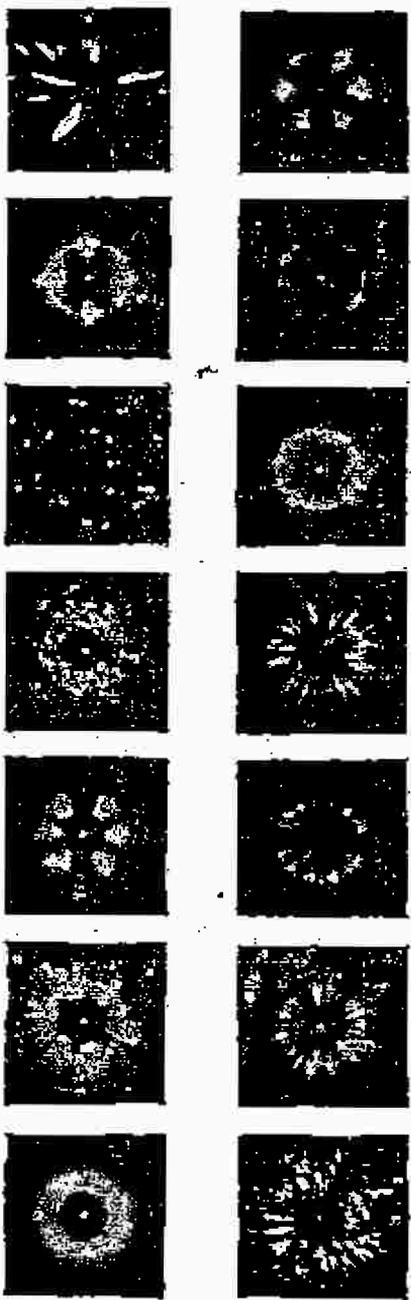
اناطول : فلتقف عند هذا الحد من الجدل . اجل يا سيو مونتكيه ويا سيو بكل ويا سيو رزل : انا نعيش على الارض ، وسنظل ابدأ محدودين بها ، ولو انا سادنا حولها ، وحلقنا في جوارها بل فوق جبال حمالايا من حين الى آخر . وقد يتفوق بعض الاجناس بالدم والطبيعة ، يا سيو غرانت ، بواسطة الوراثة والمحيط الملازم . والبعض الآخر يتفوق بالمقدرة العقلية . ولكن دع هذه الاجناس الفضلى تبادل الاجناس الدنيا مواطنها ، الف سنة ، ترّ ماذا يحدث . اما المسيو ماركس فلان توقع ان اقمعه بأنكم كلكم مصيرون نظيره ، لسي ان ذلك لا يكفيه . اما انت يا سيو هيل تسلم بنظرية الاعاظم ، اذا سلم ملك السادة جيمس وتارد وكارليل بروح العصر وبأن روح العصر هي المحيط العقلي الذي ينتخب العظيم المراني لعصره

وكذا يمكننا ان نتفق اذا ارتبنا بأنفسنا قليلاً

اما انا سأظل متشبهاً بأعظم الرجال فقط سواء كانوا مكوني التاريخ او لا . واؤثر اعظم عشرة من نوابغ الفرنسيين على فرنسا جماء بدوهم . واذكروا في كتابكم التاريخ ، هما تكن اسباب حوادثه ، ان الاعاظم هم تراجمها . وحذار ان تحذفوا الباقية من صفحاتكم قاني اؤكد لكم ان خريطكم واحصاءاتكم لا تمكنكم من الشهور بملاضي الا اذا رأيتهم بيون الصقيرين . فكان خيوط التاريخ كلها تجتمع في عقولنا بواسطة اعظم الرجال . وكيف فهم المانيا ولساعها لولا غوته ، وانكلترا لولا شكسبير ، وفرنسا لولا فولتير فولتير : الى النوم يا قومنا . قالنوم لا بد منهُ حتى لا نخالدين



اشعة اكس تكثف عما عجزت عنه أقوى الالكروسكوبات



صور مصورة بأشعة اكس لانواع مختلفة من البلورات

والعام المتوزع على هذا النوع من العلم يستطيع ان يتفقد الى طريقة اعطاء التذرات في البلورات بدروس هذه الصور واضحا